قصبة الأوداية

(بقلم عبدالعزيز بنعبدالله)

قصبة الأوداية بناها تاشفين المرابطي (ابن عذارى ج3 ص20 طبعة الرباط / الحلل الموشية (112) / ويرجعون بناءها إلى عبد المومن عام (545هـ) للإقامة بها في طريقه إلى قصر المجاز وكان جيشه يرابط في جبل العرض (لعلو) وهي منسوبة للمهدي بن تومرت (المشترك وضعا والمفترق صقعا للحموي) / تاريخ تطوان ج1 ص217).

– قواد القصبة في العهد العلوي : لما تمرد جيش الأوداية على المولى عبد الرحمن بن هشام نقل أهل سوس منهم إلى رباط الفتح وأنزلهم بالمنصورية على شاطئ وادي النفيفيخ و أنزل قوادهم وأعيانهم بالقصبة التي صارت منذ ذاك تعرف بقصبة الأوداية وتولى قيادتها إدريس بن حمان الجراري ثم ولده القائد الجيلاني ثم القائد حمان بن عبدالله المطاعي الأوديي وبعد وفاته عادت القصبة إلى قيادة أهل جرار فأسندها المولى عبدالرحمن إلى القائد محمد بن إدريس الجراري حيث ظل أربعة أعوام ولي بعدها القائد محمد بن الشرقي الأوديي ثم الطيب بن الجيلاني المطاعي المعروف بولد الخيمة ثم القائد الجيلاني بن الشرقي نجل القائد محمد بن الشرقي ثم محمد بن الحاج الأوديي ثم علال بن القائد إدريس و القائد المهدي بن إدريس حيث ظل ثمانية أعوام ثم القائد قاسم بن بوعزة الزيراري الأوديي ثم إدريس بن العربي الصويني الجراري.

– **قصر بني تاودة** في مصب أبي رقراق وهو قصبة الأوداية (كتاب الجغرافية لمحمد بن أبي بكر الزهري (دمشق 1986) (ص192) وكان يوجد في محل المهدية برج الأوداية ولعله عتيق من عهد الرومان أو هو قصبة تاشفين المرابطي.

(قصبة الأوداية لأبي جندار) تسمى (قصبة الرباط الأثرية) خع 1047 / مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح لبوجندار الرباط 1345 ص39) ويقال بأنها كانت تحمل هذا الاسم قبل نقل الأوداية إليها.

– **المهدية المجاورة** لمدينة سلا (المن بالإمامة ص 444) هي قصبة الودايا وقد سماها عبد المومن مهدية متاع بن مليح وبها دار الخليفة (ص446) / معجم البلدان – صبح الأعشى ج5 ص169).

وكان أبو حفص عمر المرتضى واليا من قبل السعيد علي بن المامون بن المنصور على قصبة رباط الفتح فبويع خليفة بعد وفاة السعيد عام 646هـ (الاستقصا ج1 ص205) / الأوداية وأسبانيا – مجلة هسبيرس – عام 1955) وأحمد الريفي قائد العدوتين هو باني سور مولاي الرشيد بالأوداية بالرباط. تاريخ الرباط (ص377) وقصبة الأوداية برباط الفتح محاطة بسور سواء على طول نهر أبي رقراق أم تجاه البحر ونحو السهل البري ولم يعد هنالك من جهة الوادي سوى قطعة جدار قرب ما يسمى بصقالة طولها نيف وثلاثون مترا، وارتفاعها نحو ثمانية أمتار وبجانبها ما يدعى بمستودع مولاي اليزيد (أي العلوي نجل السلطان محمد بن عبد الله) والكل مقام فوق الصخر بحجر غير منحوت، وهنالك بقايا أسوار أكثر أهمية تقع بين مقهى الأوداية والبناية الدائرية والمسماة (المدورة) التي تغمرها مياه الوادي عند المد، أي من ناحية البحر والبر فإن السور الممتد مازال قائما ويبلغ معدل عرض السور مترين اثنين ونصف متر بينما يصل على مقربة من برج سوق الغزل إلى أزيد من ثلاثة أمتار قد طلي ظاهرها بدهن سميك وكان الحرس مبثوثا فوق نهج سوي قد مد على هذه الأسوار يذهب ويجيء لخفر الجوانب المشرفة منها. وليست كل هذه الأجزاء من صنع الموحدين لأن بعضها قد تجدد بناؤه منذ نحو القرنين بفضل ما أولاه الملوك العلويون من عناية فائقة لهذه التحصينات، أما الأبراج التي تعلو الأسوار فبعضها ما زال ماثلا للعيان في روعته المهولة مصوبا فجواته نحو المحيط أو تجاه المدينة.

ويظهر في خصوص مادة البناء في سور قصبة الرباط انها وسط بين النهج المعماري المرابطي وبين المعطيات الموحدية التي برز فيها مزيج من الملاط المقوى بالرمل والماء، فالأسوار التي يرجع تاريخها إلى عهد يوسف بن تاشفين وخلفائه قد بنيت – كالقسم المشرف على سوق الغزل – من الحجارة غير المنحوتة والآجر أو من الحجارتين المبسوطة وغير المنحوتة، وقد استخدم الموحدون غالبا الحجارة وحدها دون تحميل أنفسهم عناء نحتها كما هو الحال في أبراج موحدية أخرى غلب

عليها الطابع القرطبي وقد تأثروا هنا ببدائية سلفهم اللمتونيين، ومع ذلك فإن القصبة لم تكن تخلو من روعة وجلال.
وينفذ الزائر إلى (قصبة الأوداية) من ثلاثة أبواب أكبرها الباب الأثري المؤدي إلى سوق الغزل والثاني هو الباب الواقع بين الباب الأول وبين البرج، ويظهر أنه حديث العهد يرجع تاريخه إلى العصر العلوي، بينما يقوم الباب الثالث العتيق قبالة الجهة الشمالية الشرقية للمتحف. أما الباب الكبير فإنه في منتهى الروعة يبلغ طوله 38,60م وعرضه 16م، ويتراوح علوه بين 12 و 13م وتحتوي طبقته الأرضية على ثلاث قاعات متداخلة وعلى طبقة أولى تحتوي على خمسة ممرات فوقها سطح يطل على مجموع القصبة، وتبلغ مساحة القاعة الأولى نيفا وسبعة أمتار في مثلها تعلوها قبة سامقة مع حنايا جانبية تليها قاعة ثانية في نفس الأحجام مقببة ومحلاة بمناجذ شبيهة بالجواهر المنظومة. أما الغرفة الثالثة فإنها اعرض ويزدان الوجه الباطني للباب بعضادات أو أعمدة مربعة تحمل مساند ناتئة تعرف اليوم بطاولات الجدار ولا تزال بقايا التبليط الذي كان يغطي أرض القاعات، ويذكرنا تصميم باب القصبة بأحجامه وأشكاله المنعرجة بتخطيطات أبواب السور الموحدي لرباط الفتح إلا أن ترتيب الغرف يختلف فيهما وقد لا يبدو جليا العامل الداعي إلى تحلية غرف ذات هدف يتسم ظاهرها بطابع عسكري إلا أن هنالك عناصر تدل على أن السمة العسكرية لم تكن هي البارزة في هذا التصميم لأن ضخامة مصراعي الباب مثلا لم تكن لتعين على الصمود أمام ضربات الأكباش (وهي آلات حربية تتألف من عمود خشبي أو من حديد تدك بها الأسوار والأبواب) كما أن الممرات العلوية لم تكن تشكل غرفا حصينة للدفاع ولا توجد أية فائدة عسكرية في وفرة القاعات.
وهكذا يمكن القول مع (كايي – **Caillé**) بأن باب قصبة الأوداية ليست في مجموعها جهازا قويا للحماية والاستحصان بل هي لا تعدو كونها مدخلا عاديا لقصر من القصور تحيط به أسوار زيادة في الدعم ويرابط الجند في إحدى القاعات بينما يتخذ الخليفة من الغرفتين الأخريين قاعتين لاستقبال رعاياه أثناء مقامه على ضفاف أبي رقراق.
ويلاحظ أن انعدام الملاط المقوى قد يثير الدهشة بالنسبة للعصر الموحدي الذي امتازت فيه الهندسة العسكرية بالاستعاضة عن الحجارة بهذا الملاط لا سيما وأن الأبواب الأخرى لمدينة تغايرها تماما من حيث مادة البناء.
وقد قيل من جهة أخرى بأن وفرة القباب في إفريقيا الشمالية ترجع لقلة الأخشاب الفنية الرقيقة وقد فند (كايي) هذا الرأي خاصة باعتبار عصر الموحدين ويظهر أن اللجوء إلى القباب يهدف إلى تفادي هلهلة الأقواس المعروضة المستطيلة. وقد أظهر النحاتون براعة في نقش بابي القصبة وهو نحت ثري منوع في صلب الحجر على مستويات عديدة تتخلله خطوط هندسية تحدد مختلف الأقسام وتحيط كتابات الخط الكوفي بالمشتبكات وبأفاريز الزخرف السعفي إلا أنها غير واضحة ويعلو الجميع إفريز من الحنايا المرصومة (أي المسدودة) وتقضي التقاليد بأن يكون الوجه الباطني للأبواب أقل تنسيقا من الوجه الخارجي إلا أن باب قصبة الأوداية تشذ عن هذه القاعدة فتبرز فيها كل العناصر الفنية التقليدية من خطوط هندسية وحنايا متفتحة وأفاريز وأشرطة كتابية وأقواس مفصصة (أي ذات قويسات طبقا للفن الأندلسي المغربي) وأقواس حدوية (أي شبيهة بحدوة الفرس أو نعله) وتتجلى التخطيطات الكوفية في أروع مظاهرها وهي أجمل أنواع الخطوط وأوفقها للنقوش المعمارية ولذلك كانت تشكل أحد المجالي البارزة في الفن الأندلسي، أما الرسوم النورية أو الزهرية فإنها تشغل أيضا في هذه النقوش حيزا واسعا كما يوجد رسم في شكل حية قائمة على ذنبها انطلاقا من الأقواس المفصصة في الوجهين معا ويتوافر هذا النوع من الرسم في الأبواب الموحدية الكبرى (باب كناوة (مراكش) وباب الرواح (الرباط) وستحلى بها أبواب شالة في العهد المريني، والملاحظ أيضا، أن الرسوم السعفية (أي التي تتخذ أشكال سعف النخل) تعتبر من العناصر الكلاسيكية في الترخيمات الموحدية وهي موجودة في جميع الأبواب المومنية إلا أنها أبرز وأوسع في باب القصبة خاصة في الوجه الخارجي للباب وهي من المقتبسات الراجعة إلى الفن القوطي قبل الإسلام.
وبالرغم عن ثراء النقوش من حيث الأشكال والتقاسيم فإنها تظل واضحة المظهر خفيفة المس دون أي غلو ولا تشعيب بخلاف ما سيمتاز به الفن في عهد بني مرين من تكثف ووفرة. وهناك تناسب بين الترخيم في مختلف أجزاء الهيكل العام يتسم بالقوة والرشاقة معا بحيث لم يختلف الموحدون في ذلك عن تقاليد الفن الإسلامي شرقا وغربا.

- **المسار السياسي والاجتماعي للقصبة** : حاولت دول أوربية احتلال القصبة ولكنها فشلت بسبب الاختلاف بين الأوربيين ونظرا للحاجز الرملي الطبيعي من مصب النهر (**barre**).
وقد وجه قواد الرباط سفراء إلى إنجلترا عامي 1627 و 1628 وعقدوا معاهدات واتفاقات عديدة ولم يكن إبرام المعاهدة يتم إلا بالتهديد ففي عشري يوليوز 1629 نزل (رازيلي **Le Chevalier de Razilly**) فرضة أبي رقراق بأسطول يتكون من ثماني بواخر رابطت أمام القصبة التي واجهتها بقذائف مدفعية أعقبتها بثمانين قذفة عندما حاولت البواخر الفرنسية بعد ذلك بأيام مطاردة مراكب رباطية لدى دخولها إلى المرسى وهنا تبودلت رسائل مجاملة مع والي المدينة الذي أهدى للمبعوث الفرنسي رازيلي (12) من الشياه و (12) سلة عنب مسكي (وهو من خواص غراسة الرباط) ودواجن ولكن (رازيلي) وجه إنذارا للديوان فقوبل برد عنيف من سلطة الرباط فقام الأسطول الفرنسي بمحاصرة القصبة والعدوتين وحطم عدة مراكب قرصانية ثم قام المبعوث الفرنسي (**Du Chalard**) ففاوض رجال القصبة وأندلسيي الرباط ووقع معهم معاهدة هدنة بتاريخ عشرى أكتوبر 1629 نصت على تحرير الأسرى الفرنسيين مقابل (265) ليرة للواحد ولكن هيجان البحر عرقل نقلهم إلى البواخر الفرنسية فعقدت معاهدة أخرى في ثالث شتنبر 1630 حصل (دوشالار) بمقتضاها على (120) أسير وقد استعمل (رينسبوروغ) الإنجليزي نفس الأسلوب عام (1637) حيث كتب للوالي القصري يوم ثالث أبريل فلم يجبه فحاصر القصبة واتصل بالعياشي وأمضى معه يوم (ثالث عشر مايه 1637) معاهدة لتحرير الأسرى الأنجليز وكان عددهم (سبعة) وقد اضطر (القصري) إلى تحرير ثلاثمائة أسير بعد مفاوضات موصولة مع أوربا وفي عام (1656) حاصر أسطول إنجليزي القصبة بإمرة الأميرال بليك **Blake** فدمر عدة بواخر دون الوصول إلى اتفاق مع القصبة لرفضه شراء الأسرى وعددهم أربعة وعشرون مع الاستعداد لتعويض من يملكهم فاستمر الحصار ولم يحرر الأسرى إلا في العام التالي ولكن هولندا لم تعمد إلى التهديد لتحرير أسراها الذين كان عددهم أقل من أسرى فرنسا وإنجلترا وقد رابط الأميرال الهولندي (لورانس ريبل **Laurens Reael**) في عرض ميناء الرباط عام 1627 للتزود بالماء.
وكثيرا ما كانت المفاوضات تتم بسهولة وكذلك تحرير الأسرى بدون تهديد مثل ما وقع عام 1627 حيث وصل المبعوث الإنجليزي (هاريسون) غير معزز بأسطول فحرر (الهورناشيروس) (مائة وتسعين) أسير إنجليزي واقتبل السفير أحسن اقتبال ورافقه الأندلسيون بالميناء للحصول على العتاد وكثيرا ما كان الأسرى يحررون عن طريق الرهبان والتجار الإنجليز فقد قام الأب Athia عام 1659 بتحرير خمسين أسيرا في الرباط كانوا على وشك اعتناق الإسلام والواقع أن محاولات الاستيلاء على القصبة بدأت قبل ذلك دون تعليل بقضية الأسرى لأن القصبة كانت تشكل مركزا استراتيجيا يشرف على العدوتين وعلى مصب الوادي ففي عام 1619 كتب والي مازاغان المحتلة (**Jorge Mascarenhas**) إلى (فيليب الثالث) ملك الأسبان يخبره بضرورة إخضاع القصبة لأسبانيا مشيرا إلى مفاوضته أحد الأندلسيين بهذا الصدد فتبين أن ذلك محض وهم.
وفي عام 1637 فكرت إنجلترا بعد نجاح حملة (رينسبوروغ) في احتلال القصبة فوجه كاتب الدولة الإنجليزي (ويندبانك **Windebank**) إلى الأميرال رينسبوروغ يوم حادي عشر غشت يأمره باحتلال القصبة إذا رضي الأندلسيون بتسليمها إليه دون حصول اختلاف ولم يكن الأميرال يتوفر على العتاد والرجال لتحقيق ذلك وقد زعم البعض بأن سكان القصبة كانوا يفكرون في تسليمها حيث فاوضها عام 1637 (**Don Juan de Toledo**) الذي ورد بحرا من المعمورة فوجه خمسمائة رجل لاحتلالها ولكن القائد القصري أوقفه عند حده وفي عام 1638 زعم (Rastin) أن الأندلسيين كانوا يفضلون الاستسلام لملك أسبانيا بدلا من العياشي كما زعم أن (القصري) كتب في نفس الوقت إلى الدوق مدينة **Duc de Medina Sidonia** لإبداء اضطراره إلى تسليم القصبة إلى المسيحيين بسبب محنة محكوميه (**Journal de G. Carteret p. 456**) ويقال بأن نجل القائد القصري قبل المشروع ولكن القائد مراد تعرض (ص456) فتدخل (جوهن كارتري) **John Carteret** وأوعز للقائد بتسليمها لملك إنجلترا نظرا لكون أسبانيا تملك في المغرب عدة مدن هامة وهي - يقول المبعوث الإنجليزي - خطر على البلاد في حين ليس هنالك ما يدعو إلى الخوف من (شارل الأول) فلم يتم شئ من ذلك (ص459) وقد لاحظ (روبير بليك **Robert Blake**) أن الأندلسيين كانوا قد سئموا وملوا عام (1640) فكان فيهم استعداد لتسليم القصبة لأب مسيحي يلتزم بنقلهم إلى مكان أمين لقضاء بقية أيام حياتهم ومنه بلاد إنجلترا نفسها وقد وجه عام (1641) مذكرة إلى البرلمان الإنجليزي حول احتلال القصبة مع الأمن من

وطأة القراصنة والحصول على أرباح من ملاحات أبي رقراق ومنجم القصدير بالقرب منها والقيام بتجارة مشتركة مع الأهالي على حساب الفرنسيين والهولنديين ويزعمون أن الأمير عبد الله الدلائي اقترح هو نفسه عام 1660 على والي سبتة تسليم القصبة لملك أسبانيا (فيليب الرابع) بشرط مساعدته بواسطة الأسباني (**Marquis de Los Arcos**) على الانتقال إلى مدينة إفريقية بالشمال حسب اختياره ولكن أسبانيا كانت قد وقعت تحالفا مع الخضر غيلان فأوعز إليها بعدم القبول (دوكاستر – إنجلترا م.3 ص 548) ويزعم (مويت في رحلته ص 14) أن الأمير عبد الله الدلائي اقترح على الإنجليز تسليمهم القصبة مقابل ألف قنطار من البارود وكمية من البنادق لمحاربة الخضر غيلان ولكن الوثائق الإنجليزية لا تشير إلى ذلك عدا أن الملك (شارل الثاني) وجه تعليماته يوم (حادي وعشري دجنبر 1663) إلى الكونط تيفيو **Teviot** لاحتلال القصبة إذا قبل الدلائي تسليمها وإلا منع الخضر غيلان من احتلالها ولعل الإنجليز ندموا على عدم مساندة (غيلان) الذي تربطهم به معاهدة حلف عام (1664) حيث كان من الممكن – كما يزعمون – أن يسلم لهم كلا من الرباط والقصبة ولعل كل الاقتراحات المزعومة الصادرة من الأندلسيين والدلائيين لم تكن سوى محاولة للحصول على السلاح ضد بعضهم البعض فلذلك لم تنتج المفاوضات بإضافة عدم وجود القوة الكافية لدى المسيحيين لضمان حماية القصبة بعد احتلالها وقد أشار كوتيي (ص 244) إلى عثور كولان (**Colin**) بين (الوثائق الوطنية بباريس) على وثيقة تؤكد أنه منذ عام (1631) اقترح أندلسيو القصبة على ملك أسبانيا تسليمها إليه بشرط السماح لهم بالعودة إلى مدينة البلاطة (هورناشيروس).

وتشير بعض المصادر إلى مشروع معاهدة بين الأندلسيين وملك أسبانيا فيليب الرابع عام 1631م ومن هذه المصادر (مخطوطة أسبانية رقم 156 بالمكتبة الوطنية بباريس) وهذا المشروع كان يستهدف عودتهم إلى قرية (هورناشيروس) في (استرامادور) غربي الأندلس على بعد 35 كلم جنوب شرقي (مريدة) دون أن يسكن معهم بها غير الرهبان لتعليمهم شؤون الدين المسيحي مع حصولهم على ما كان لهم من امتيازات قبل النفي من الأندلس والتزموا بالإتيان بالأدلة على ما قاسوا من محن وموت في سبيل المسيحية ويلتزمون بالانتقال على نفقتهم في سفنهم القراصنية إلى اشبيلية كما يستردون أولادهم بعد عودتهم إلى أسبانيا وكانوا قد انتزعوا منهم قبل الطرد ووصفت القصبة بأنها أعظم حصن في بلاد بربريا فيها تموين سنتين و68 مدفعا بعضها من إنجلترا وبعضها الآخر اشتروه مما غنم للدون سبستيان مع المؤن والبارود مما يكفي ثلاث سنوات واستأذنوا ملك أسبانيا في نهب اليهود الأثرياء وتسليم أموالهم إليه وكذلك في إقامة حصن بفضالة لإيواء المراكب القراصنية وتسلم كل من قصبة الأودايا وهذا الحصن إلى ملك أسبانيا مع كل ما لديهم من وثائق ديبلوماسية عن علاقتهم بإنجلترا ومرسيليا (وكان في القصبة قنصل عنها) وهذا المشروع لم يتم وقد قدم "الموريسك" إلى ملك أسبانيا مشروعا آخر عام 1637 في هذا العدد.

والظاهر أن الخلاف الذي كان قائما بين (الهورناشيروس) وأندلسيي الرباط كان له ضلع في هذه المساومات للحصول على السلاح فقد لاحظ (دوكاستر في وثائقه (حول الموريسك م 3 ص17) أن الأندلسيين طردوا قائد القصبة عام (1627) وأسسوا ما سماه "جمهورية" (وهو محط افتراء لأن هذا الاسم لم يكن معروفا ءانذاك لا في المغرب ولا بين الأندلسيين بل كانت معظم دول أوربا ملكية) وانتخبوا قائدا لمدة سنة يعينه ديوان أو مجلس من ستة عشر عضوا وهنا بدأ الصراع بين فريق الهورناشيروس وعددهم (ثلاثة ءالاف) والخمسمائة ألف من الأندلسيين سكان المدينة فاحتدم الخلاف بينهما واتفقوا مع ذلك ضد سلا التي تمردت ضد المولى زيدان السعدي فلم ينجح في قمعها واعترف للرباط باستقلال شبه تام مع مشاركة قراصنة الرباط في حصيلاتها الناتجة عن الجهاد ضد السفن التجارية الأسبانية التي كانت تمخر عباب المحيط من الجزر الخالدات إلى ناحية كاسطوني) **Gastogne** وكان الكفاح جهادا في البداية فانقلب إلى قرصنة ضد العدو ولم يكن القراصنة من سلا كما تزعم المصادر الأجنبية التي تقصد بالسلاويين سكان سلا الحديثة (وهي في نظر المصادر العربية مدينة الرباط لأن سلا حديثة بالنسبة لشالة وقد وصف الإدريسي سلا بالحديثة قبل تأسيس مدينة الرباط بنحو نصف قرن (وهو تاريخ وفاته) وقد بلغ عدد الأسرى الذين اقتنصهم أندلسيو الرباط خلال ثماني سنوات (ستة ءالاف أسير) تم فداؤهم كلا أو بعضا في مفاوضات وانضافت مبالغ الفدية إلى مداخيل الديوانة التي بلغت (25) مليون (دوكا) طوال عشر سنوات (1620–1630) وقد "قرصن" الرباطيون خلال هذه المدة ألف سفينة كانت بضائعها تباع بالدلالة فكان البحار يتقاضى (30) جنيه والضابط (60).

والواقع أن جهاد الأندلسيين الذين كانوا يسمون (موريسك) من طرف الأسبان) انطلق أول ما انطلق من تطوان ضد الشواطئ الأسبانية وكان الأندلسيون عارفين بمخابعها ومكامنها وكان جهادهم رد فعل ضد حركة التفتيش Inquisition القمعية وضد الجرائم الأسبانية المرتكبة ضد المسلمين واليهود خاصة في غرناطة ونواحيها وكانت المجاهدة (عائشة الحرة) زعيمة هذه الحملات منذ العهد الوطاسي أي ءاخر عهد بني مرين وكانت تتقن القطلانية وقد تزوجت حليف والدها ضد البرتغال السيد علي المنضري مجدد بناء تطوان وحكمت المدينة باسمه وناضلت بسفنها ورجالها غربي البحر المتوسط وقد ظلت مناوشتها ضد (الدون ألفونصو) حاكم سبتة الحادثة البارزة في حوليات المؤرخين (مجلة هسبريس عدد **XLIII**) (222).

ونعني برباط الأندلسيين رباط الفتح حيث كانت دور السكنى قليلة لا تسع كل المهاجرين الهورناشيروس فنزل بها الأندلسيون وأسسوا مدينة جديدة خارج القصبة على ضفة الوادي حدودها شمالا الوادي مع سور والاستناد غربا على السور الموحدي وإقامة سور جديد جنوبا وشرقا من (باب الحد) إلى (برج سيدي مخلوف) على الهضبة المشرفة على الوادي وهي نفس المدينة الأهلية الحالية تمتد في (واحد وتسعين) هكتار بإضافة مقبرة لعلو وقصبة الأودايا وهي قسم من رباط الفتح الموحدي الذي كانت مساحته (418) هكتار وانتشرت وراء السور الجديد عرصات وجنان كان الأندلسيون يزرعون فيها القمح والشعير والفول **(Dapper p.141)** وكروم العنب (كانت تدر آنذاك مائتي طن من الخمر كل سنة **(Journal de Carteret)** وكانت المدينة مفصولة عن القصبة بساحة الكرم في القسم السفلي لسوق الغزل (راجع رسالة مازي **Mazet** إلى ريشليو في عاشر يبراير 1631) ولعل إضافات عمرانية زيدت في المدينة الأندلسية لأن الحاج موسى العقاقيري قام عام (1660) خلال حصار القصبة بتحصين حفاف الساحة المعروفة بساحة الكرم **Place du Figuier** أسفل سوق الغزل) بمحجات مستديرة (دابر ص 141) فكان للمدينة تصميم منتظم لم تعرفه الحواضر الإسلامية القديمة (كايي – تاريخ الرباط ص 246) وذلك بفضل مساهمة الفكر الأندلسي فكان في المدينة أربعة أزقة أساسية من الشمال إلى الجنوب و زقاقان اثنان عرضا من الشرق للغرب محصورة كلها بين السور الجديد وأبي رقراق.

<u>المراجع الأجنبية</u>

- **Attestation de marchands et de Saletins, du 1er oct. 1643 (p.34)**
- **Note de Mohammed Vanegas pour les E.G, du 23 oct. 1629 (1er série T4 p. 235)**
- **Lettres des gouverneurs de Salé (Rabat) à Charles 1er, du 18 avril 1627.**
- **Lettres des gouverneurs de Salé (Rabat) au conseil privé, du 16 mai 1627 (D. 1er s., p.91)**
- **Lettres des E.G au caïd de Salé, du 28 sept. 1623 (D. T3 p 382)**
- **Lettre de Mohamed Ben Abd el Qader Ceron à Frédéric - Henri de Nassau, du 5 juillet 1629 (CD - 1er S., T4 p231.**
- **Lettres des caïds de Salé aux E.G, de 3 août 1636 (p. 414)**
- **Lettres des caïds de Salé (R.) et de la Kasba aux E.G., du 2 oct. 1643 (T.5, p.43).**
- **Lettres des caids de la Kasba aux E.G., du 10 fév. 1651 (D, p.247).**
- **Lettre d'Aaron Quediro à Diego Nunez Belmonte, du 30 mai 1624 (D. p.503)**
- **Requête de Youssef Biscaïno aux E.G, du 13 nov. 1624 (D. T. 4 p42).**

وهكذا يمكن القول بأن القصبة كانت تشكل حصنا إستراتيجيا للدفاع عن العدوتين وعن مصب أبي رقراق والمحيط وكان بها عام (1630) (ستة وسبعون) مدفعا استوردت من هولندا وإنجلترا والبرتغال توجد من بينها سبعون نفضا من الحجم الكبير موجهة أيضا ضد رباط الفتح وكان بها حامية من (1.500) جندي عام (1622) انخفضت إلى (1.300) عام 1631.

والظاهر أن موقع القصبة الاستراتيجي هو الذي كان سبب محنتها فقد ذكر محمد بن سعيد في رسالة وقعها معه أحمد نارفييز **(Narvaez)** إلى شارل الأول ملك إنجلترا بتاريخ يوليوز 1627 (دوكاستر

– س. أ. – إنجلترا م.3 ص25) بصدد أمل إنجلترا الحصول بمصب أبي رقراق على قاعدة عسكرية ضد الأسبان ولكن أعضاء في حكومة لندن كانوا يرفضون التفاوض مع القراصنة.
وقد استتب الأمن والاستقرار في العهد العلوي فاندرجت العدوتان في سلك الحواضر المغربية الخاضعة للمخزن ضمن قيادة مشتركة أو ثنائية وقد أولى كل من المولى الرشيد والمولي إسماعيل عناية أكبر للقصبة فوسعاها وحصنا الدفاع عنها وقد أنشئ ءانذاك سور حديقة الأوداية أمام (سوق الغزل) ورصيف الديوان وبنى المولى الرشيد قصرا جديدا يتصل بالقصبة ويشرف على البحر وقد أحيل إلى ثكنة عسكرية (قشلة) مجهزة بالمدافع والعتاد وقد اعتنى المولى إسماعيل بوادي أبي رقراق فتنازل عن حقوق المخزن في (صيد الشابل) وحبسه لصالح مساجد الرباط وسلا وأقام داخل القصبة ساحة تضم المتحف الذي استعمل – على ما يظهر – كمدرسة لتكوين البحارة (راجع العلويين في الجزء الأول من الموسوعة للمؤلف).
وإذا كان المولى الرشيد قد عزز القصبة بحامية عسكرية من (ثلاثمائة) رجل فإن المولى إسماعيل الذي قام بتجميع عبيد المخزن قد أنزل بعضهم في القصبة حوالي (1098هـ /1686م) حيث اختار منهم قائدا للقصبة التي احتكر العبيد السكنى بها وبباقي القصبات الإسماعيلية المنتشرة على طول البلاد وكان بالقصبة وثكنتها (ثلاثون) مدفعا علاوة على المدافع والأنفاض الموجهة إلى ناحية البحر دفاعا عن الساحل ولكن ذلك لم يمنع البواخر الفرنسية من مطاردة سفن القراصنة التي كانت تأوي إلى مصب الوادي وراء الحاجز الرملي (barre) الذي كان يمنع السفن الكبرى من مطاردتها وكان (مويت) أحد الأسرى العاملين في بيت قائد القصبة وكان سوق النخاسة يعقد تحت أسوار القصبة قرب الباب لبيع الأسرى المسيحيين ولم يكن عدد سكان العدوتين ءانذاك يزيد على عشرين ألف نسمة (حسب بيدو ص 28 **Pidou de St Olon**).
وإذا استثنينا فترة سادتها الفوضى والاضطراب في عهد المولى عبد الله بن المولى إسماعيل طوال ثلاثة عقود من السنين عادت فيها آيت الأربعين إلى الوجود فإن عهد المولى محمد ابن عبد الله أصبح عهد استقرار وازدهار صارت القصبة خلاله حصنا منيعا للذب عن حوزة حاضرة أدرجها السلطان محمد الثالث ضمن الحواضر السلطانية (مراكش وفاس ومكناس) فبنى بها قصرا وجهز مشوره ووجه سفيره عبد الكريم ركون عام (1181هـ /1767م) إلى أوربا لشراء قطع المدافع والعتاد والبارود مع استخدام خبراء قصد إحياء (دار صناعة السفن (في المريسة بسلا) وكان من بين الخبراء الأتراك (الحاج سليمان التركي) الذي تكفل بتكوين جنود الرباط خصص (80) منهم لممارسة المدفعية (الطبجية) (حسب تاريخ الضعيف) وقد تزايد عدد حماة القصبة فأناف على ألفين اثنين من الرماة كانوا يتقاضون أجرة قدرها مثقال واحد في الشهر (ما يعادل 7,5 فرنك) وهي أكبر حامية بالنسبة للثغور إذا أضفنا إليها عدة ءالاف من العبيد المقيمين في (أكدال) وقد دعم السلطان أجهزة القصبة فبنى (صقالة) أشرف عليها قائد المدينة (علي مرسيل) وكذلك (برج الصراط) واستورد مدافع من (جبل طارق) (كتاب **Temprière** ص494) وحذف الممر المكشوف بين القصبة والقشلة وهدم القصر الموحدي بالقصبة وأنشأ خزينة لأداء أجور جنود ثغور المحيط أودعت في قاعات باب القصبة (راجع بيت المال).
وقد وصف لنا صاحب كتاب (منظر الفرضة والميناء ومدينة سلا) **(La vue de la rade, du port et de la ville de Salé)** القناطر المعلقة التي كانت تنقل مياه الشرب والسقي إلى القصبة والمدينة وقد تعددت هذه القناطر المعلقة المتفجرة من عيون مثل (عين بركة) بسلا وكانت معظم القناطر على مستوى الأرض أو على جدار محمول فوق أقواس مثل الأقواس التي كانت تصل القشلة الرشيدية بالقصبة (حسب مويت) وقد نقل المولى عبد الرحمن بن هشام إلى (قصبة الأوداية) (راجع الأوداية) عسكر فاس عام (1249هـ /1833م).
وكانت هنالك أبراج أخرى ومحارس أنشأها القراصنة وقد عثر عام 1915 على ما بدرج القراصنة وهو سرداب جوفي على بعد أربعة أمتار جنوب شرقي (برج القراصنة) يقع مدخله على الواجهة الجنوبية الغربية بموازاة الجدار المشرف على النهر وقد ظهر لبعض الاختصاصيين أن هذه الآثار ليست سوى أنقاض لدار والي القصبة ومعنى ذلك أن تأسيسها يعود إلى عهد هجرة الأندلسيين لا سيما وأن (مويت) الذي عاش في هذا الحي لم يشر إلى وجودها فيما كتبه عن (العهد الرشيدي) والإسماعيلي كما فعل بخصوص قصر الرشيد وقد لاحظ (كايي) ذلك في كتابه (ص272).

أما بخصوص سكنى اليهود في القصبة فإن المصادر الأجنبية لا تشير إلى وجود إسرائيليين بين مهاجري الأندلس إلى القصبة في القرن الخامس الهجري حيث لا تتحدث المصادر العربية والأجنبية إلا عن الهورناشيروس الذين هاجروا البلاطة (**Estramadour**) بالبرتغال ولعل جانبا من المهاجرين قد وصل إلى القصبة بعد أن ضيق عليهم الأسبان وقلصت المجامع الكنسية في طليطلة عامي 589 و633هـ بمقتضى (قانون الأحوال الشخصية) الصادر آنذاك من حرية اليهود الدينية مع حرمانهم من شغل مناصب عمومية فانضموا إلى صفوف المهاجرين المسلمين في (قشتالة) وكان سقوط (طليطلة) في قبضة الأسبان عام (496هـ / 1102م) (نفح الطيب ج 6 ص120) للمرة الثانية بعدما حررها المرابطون عام (483هـ / 1090م) (الاستقصا ج1 ص120) وهذه الهجرة راجعة إلى الحرية التي نعم بها الأندلسيون في المغرب ومن بينهم الجالية اليهودية التي عاشت حرة ءامنة في ظل الإسلام وربما اختار بعضها ضفاف أبي رقراق مركز التبادل مع أوربا لا سيما (البندقية) منذ ذلك العصر الذي كان اليهود يتعايشون مع المسلمين في أحياء مشتركة حيث لم تؤسس الغوطات اليهودية (الملاح) إلا بعد سقوط غرناطة وتكاثر اليهود اللاجئين إلى المغرب وقد ظل القضاء اليهودي في يد (الأحبار) في عهدي المرابطين والموحدين وكذلك القانون اليهودي للأحوال الشخصية وقد كان اليهود مع ذلك عرضة لتعسفات عابرة بكل من الأندلس والمغرب حيث قام العالم إبراهيم بن مسعود بن سعد التجيبي الإلبيري بحملة ضد يهود غرناطة عام (459هـ /1067) كما فعل محمد بن عبد الكريم المغيلي في القرن العاشر الهجري بالمغرب ضد يهود المملكة إلا أن علماء فاس قاموا ضده منتصرين لمواطنيهم اليهود في انتفاضة ساهم فيها بعض شيوخ جامع القرويين مثل الإمام (ابن زكري) أكبر علماء عصره وعبد الله بن أبي بكر العصنوني (927هـ /152م) وقد أدى ذلك إلى طرد المغيلي من فاس لمجرد موقفه العدائي من اليهود (الإعلام للمراكشي ج4 ص125 – طبعة الرباط 1975).

وكان ملوكنا يرغبون قبل بناء (ملاح وقاصة) بالرباط في إسكان اليهود في القصبة تحصينا لهم فرغبوا عن ذلك نظرا للأخطار التي كانت تهدد القصبة وقد أنكر ذلك (كايي) في تاريخ الرباط واهما أن السلطان لم يكن لينصاع ويترك الاختيار لليهود في هذا المجال وهي حجة واهية لأن السلطان حبس من ماله الخاص حيا بكامله في (وقاصة) لبناء هذا الملاح.

ويظهر أن اليهود هاجروا أول الأمر إلى سلا لأنها كانت بعيدة نوعا ما عن أخطار القصبة ولذلك كان يهود سلا هم الذين يقومون بدور السمسرة في بعض الصفقات التجارية مع أوربا فهذا (كبريدوهارون) اليهودي البرتغالي الذي كان يقيم بمدينة سلا قد توسط عام (1624) لقائد القصبة والأميرال مراد الرايس لشراء مجاذيف ورماح وبارود مدفعي و(90) قنطارا من كويرات القذائف (**Lettre d'Aaron Querido à Diego Nunez, Belmonte, du 30 mai 1624**) (**راجع دوكاستر** – س.أ. – هولندا م.4 ص503).

وقد حصل عام (1629) على إذن من هولندا لاستيراد (30.000) رطل من كويرات القذف و(6000) رطل من البارود لحاميات القصبة لا للقراصنة.